

# من التاريخ والأدب

الدكتور إبراهيم السامرائي

جامعة صنعاء

قال النقاد الأقدمون إن الشعر ديوان العرب، والكلمة موجزة، وهي على إيجازها حافلة بالمعاني الكثيرة. ولعل من هذه الفوائد ما كان للشعر من مكانة في الحدث التاريخي، فليس الشعر خيراً تاريخياً ولكنه يعين المؤرخ في تثبيت الخبر وتوثيقه. ومن أجل ذلك حقلت مطولات التاريخ بالشعر الذي جعله المؤرخ القديم رفقاً للمادة التاريخية.

وربما كان الشعر القديم مؤدياً الغرض «الإعلامي» إن جاز استعمال هذا المصطلح. وكنت قد استظهرت طائفة من هذه النصوص، فكان شيء منها قد حفظته عن ظهر غيب أيام الطلب وهو يشير إما إلى حادثة تاريخية وإما إلى وصف لحال من الأحوال الاجتماعية. وقد يكون لي أن أقول: إن النص الشعري أبلغ وقعاً وأكثر تصويراً من الخبر التاريخي. وليس من شك أن قصيدة ابن الرومي في نكبة البصرة على أيدي الزنج مثلاً أبلغ كثيراً من جملة الأخبار التاريخية التي وردت في تاريخ الطبري مما يتصل بالزنج وعبثهم. وقد يكون مثل هذا ما نفيده من الأثر من قراءة قصيدة أبي تمام في فتح عمورية.

وأبدأ هذه الوقفات بوقفة قصيرة أقف فيها على شيء من شعر زهير بن أبي سلمى أتخذه نموذجاً للأدب الجاهلي لأقول: إن القصيدة العربية طوال العصور قد أحلت المواقف الاجتماعية وما ترمي إليه محلاً واضحاً. ومن هنا كانت القصيدة أداة اجتماعية تؤدي ما نحن ندعوه اليوم «الغرض الإعلامي». وقد يكون لي أن أستطيع القارئ عذراً في استعمال مصطلح «السياسة» في الكلام على أحداث ما قبل الإسلام، مما يدخل في الخصومات التي كانت تحدث بين القبائل. وإنني لأقرب بين النزاعات القبائلية وبين النزاعات التي حدثت بين القبائل في العصور الإسلامية، وما كان من فعل «السلطات» الحاكمة في إثارتها.

وقد كان الشعر الجاهلي مادة مهمة في الإعراب عما كان يحدث من تلك الخصومات،

وإننا لنقرأ في «معلقة» زهير قوله:

سَعَى سَاعِيَا غَيْظَ ابْنِ مَرَّةٍ بَعْدَ مَا      تَبَزَّلَ مَا بَيْنَ الْعَشِيرَةِ بِالْدَمِ

و«الساعيان»: الحارث بن عوف وهرم بن سنان، وقيل خارجة بن سنان<sup>(١)</sup>، و«غيظ ابن مرة» حي من غطفان ثم من بني ذبيان، وكان لهما في الصلح سعي محمود فقد تحملا الديات «بعد ما تبزّل ما بين العشيرة بالدم» ونمضي مع الشاعر فنقرأ قوله في الإشادة بما كان من الساعيين المشار إليهما في إصلاح ما جرى بين عبس وذبيان:

فأقسمتُ بالبيت الذي طاف حوله      رجال بنوه من قريشٍ وجُزهم  
يميناً لنعم السيدان وجدتما      على كل حال من سَحِيلٍ ومُبرَمِ (٢)

ويمضي في التنويه بصنيعهما فيقول:

تداركتما عبساً وذبيان بعدما      تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم (٣)

«وهو بهذا يشير إلى الشر العظيم الذي وقع بين القبيلتين، وليس من حاجة إلى أن أشير إلى ما قيل في عطر منشم».

ويمضي الشاعر فيقول:

وقد قلتُما إن ندرِك السلمَ واسعاً      بمالٍ ومعروفٍ من الأمرِ نَسَلِمِ  
فمَنْ مُبْلِغِ الأَحْلافِ عَنِّي رسالَةً      وذبيانَ هل أقسمتُمُ كلُّ مُقسَمِ  
فلا تكتننَّ اللهَ ما في نفوسكم      ليخفي، ومهما يكتم الله يُعلمِ

(١) وقيل: يزيد بن خارجة، انظر: المعاني الكبير ص ٨٨.

(٢) وقوله: «سحيل ومبرم»، «السحيل» الخيط المفرد، و«المبرم» هو المفتول، وفي العبارة «كناية» عن شدة الأمر وسهولته.

(٣) و«منشم» هذه زعموا أنها امرأة عطارة من خزاعة فتحالف قوم، فادخلوا أيديهم في عطرها على أن يقاتلوا حتى يموتوا، وقد ضرب بها الشاعر المثل، أي صار هؤلاء في شدة الأمر بمنزلة أولئك، وقيل: هي امرأة من خزاعة كانت تبيع عطراً فإذا حاربوا اشتروا منها كافوراً لموتاهم فتشاءموا بها، وقيل في ذلك أقوال أخرى، انظر: شعر زهير بن أبي سلمى (صنعة الأعمى الشنتمري) بيروت ١٩٨٠ ص ١٥ - ١٦.

وهو هنا يشير إلى «الأحلاف» وهم أسد وغطفان وطيء ويسألهم إن كانوا قد حلفوا لَيَفْعَلُنَّ ما لا ينبغي أن يفعلوه، ثم هو ينصحهم ألا يضمروا خلاف ما يظهرون، ذلك أن الله يعلم السر فلا تكتموه، أي تكتموا الصلح في أنفسكم، ثم يعود إلى الحرب وما يتخللها وما يعقبها من شرٍ وأذى فيقول:

وما الحرب إلا ما علمتُم ودُقنُم      وما هو عنها بالحديث المرجم  
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة      وتضُسر إذا ضرَّيتموها فتضرم

وهو يذكرهم بما يعلمون عن الحرب، وليس ذلك بالحديث الذي يُرمى فيه بالظنون، فقد علمتموها وجربتموها فان لم تعملوا للصلح لم تحمدوا أمرها.

ثم يمضي في بيان ويلات الحرب...

أقول: هذه القصيدة بما اشتملت عليه من هذه الأبيات وغيرها تؤلف مادة إنسانية تتصل بإنسانية العربي القديم وما كان من أمره في سلوكه وممارساته، وهنا يقف الشاعر رسول خير وسلام ومحبة. وهذه الأبيات قد تفوق سائر ما قيل في هذه الأخبار التاريخية القديمة، وهي من هنا أفصح في الدلالة من الخبر التاريخي، وإن لم تكن مادة تاريخية منقطعة إلى التاريخ.

ومن مشاهد العرب في الجاهلية ما يدعى بـ «أيام العرب» التي كان فيها الشعراء أعلاماً بارزة، فقد سجلوا ما كان في هذه الأيام من قتال، وما كان فيها من أحداث، ومن هذا ما نقرأ من قول قيس بن الخطيم في يوم بعث للخزرج على الأوس، وكلاهما من قحطان، في يوم حاطب أيضاً:

اتعرف رسماً كاطراد المذاهب      لعمره وحشاً غير موقوف راكب

إلى أن يقول:

دعوت بني عوفٍ لحقن دماهم      فلما أبوا سامحت في حرب حاطب  
وكنت امرءاً لا أبعث الحرب ظالمًا      فلما أبوا أشعلتها كل جانب

وإلى أن يقول:

ويوم بُعَاثِ أَسْلَمْتُنَا سَيَوْفُنَا  
فهلا لدى الحرب العوان صبرْتُمْ  
فأنبأ إلى أبنائنا ونسائنا  
وما من تركنا من بُعَاثِ بَأَثِبِ<sup>(١)</sup>

فأجابه عبد الله بن رواحة بقوله:

إذا عَيْرْتِ أَحْسَابُ قَوْمٍ وَجَدْتُنَا  
نُحَامِي عَلَى أَحْسَابِنَا بَتْلَادِنَا  
بُخْرِسٍ تَرَى الْمَازِي فَوْقَ جُلُودِهِمْ  
ذَوِي نَائِلٍ فِيهَا كِرَامِ الْمَضَارِبِ  
لَمَفْتَقِرٍ أَوْ سَائِلِ الْحَقِّ رَاغِبٍ  
وَبِيضَاءِ نِقَاءٍ مِثْلَ لَوْنِ الْكَوَاكِبِ<sup>(٢)</sup>

ومن هذا ما نقرأه من قول عبد يغوث الحارثي في يوم الكلاب الثاني لتميم على مذبح، وقد كان عبد يغوث أسيراً لدى تميم:

ألا لا تلوماني كفى اللوم ما بيا  
جزى الله قومي بالكلاب ملامة  
ولو شئتُ نجّنتي من الخيل نهدة  
ولكنني أحمي دماء أبيكم  
أقول وقد شدوا لساني بنسعة  
فما لكما في اللوم خير ولا ليا  
صريحهم والأخسر المواليا  
ترى خلفها الخو الجياد تواليا  
وكان الرماح يختطفن المحاميا  
أمعشّر تيمم أطلقوا لي لسانيا<sup>(٣)</sup>

وهذه الأبيات تشير إلى أن الشاعر قد أنحى باللائمة على قومه حين فرّوا، وقد أسر وهو يدافع عنهم.

\*\*\*

ومن هذه المواقف ما كان من أيام العدنانيين فيما بينهم كما كان في حرب البسوس

(١) الديوان (ط أوربا) ص ١٠

(٢) المصدر السابق ص ٣٦

(٣) انظر: نقاوض جرير والفرزدق ص ٢٧، الكامل في التاريخ ١/ ٣٧٩، العقد الفريد ٣/ ٣٥٤

بين بكر وتغلب من ربيعة، وخبرها معروف في القصص والشعر<sup>(١)</sup>، ونقرأ من ذلك قول  
الفند الزماني:

صفحننا عن بني ذهل	وقلنا: القوم إخوان
عسى الأيام أن يرجعن قوماً	كالذي كانوا
فلما صرح الشر فأمسى	وهو عُريان
ولم يبق سوى العدوان،	بناهم كما دانوا <sup>(٢)</sup>

وهذه «الحرب» كانت مناسبة انطلق فيها الشعراء حتى قيل: إن أول ما طوّل الشعر  
إنما كان في أحداثها، فقد رثى مهلهل أخاه كليباً بقصيدة بلغت ثلاثين بيتاً.

وقد سعى للصلح بين القبيلتين عمرو بن هند ملك الحيرة، وقد نشبت بينهما ملاحاة  
في مجلس عمرو هذا. وكان الحارث بن حلزة البكري قد أنشد مطولته المشهورة، كما  
أنشد عمرو بن كلثوم التغلبي قصيدته المشهورة، والقبيلتان من قيس، وكانت بينهما  
مشاركات واتصل رجال كل منهما بملك الحيرة، وإنما لنجد في قصيدة الحارث محاكمة  
ونقاشاً وجدلاً، يدور كل ذلك في فخره، ويفخر عمرو بن كلثوم بمجد قبيلته ومواقفها.

ومن هذه المشاهد «يوم اللوى» لغطفان على هوازن، وكلاهما من قيس، وقد رثى  
فيها دريد بن الصمة أخاه عبد الله بقصيدته المشهورة التي مطلعها:

أرثتُ جديداً الحبل من أم معبدٍ      بعاقبةٍ وأخلفت كل موعِدِ  
وفيها يقول:

أمرتهم أمري بمنعرج اللوى	فلم يستبينوا النصح إلا ضحي الغدِ
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى	غوايتهم وأنني غير مهتدِ
وهل أنا إلا من غزية إن عوتُ	غويت وإن ترشداً غزية أرشدِ
دعاني أخي والخيل بيني وبينه	فلما دعاني لم يجدني بقعدِ <sup>(٣)</sup>

(١) انظر: النقائض ص ٧٧٣، الأغاني ٢٢/٥، الكامل في التاريخ ٢١٢/١، العقد الفريد ٣٤٨/٣.

(٢) انظر: شرح الحماسة للتبريزي ٢١/١.

(٣) انظر: الأغاني - دار الكتب ٦/١٠، العقد الفريد ٥٤/٣.

وقال النابغة في مدح عمرو بن الحارث الأصغر الغساني:

إذا ما غزا بالجيش حلق فوقهم  
ولا عيب فيهم غير أن سيوقفهم  
تورثن من أزمان يوم حليلة  
عصائب طير تهتدي بعصائب  
بهن فلول من قراع الكتائب  
إلى اليوم قد جربن كل التجارب<sup>(١)</sup>

ويعتذر النابغة إلى النعمان فيقول:

أتساني أبيت اللعن أنك لمتني  
مقالة أن قد قلت سوف أناله  
لعمري وما عمري علي بهين  
وتلك التي تستك منها المسامع  
وذلك من تلقاء مثلك رائع  
لقد نطقت بطلاً علي الأراع<sup>(٢)</sup>

وفي ذلك يقول أيضاً:

أنبتت أن أبا قابوس أوعدني  
مهلاً فداء لك الأقوام كلهم  
ولا قرار على زأر من الأسد  
وما أثمر من مالٍ ومن ولد<sup>(٣)</sup>

وقد ظهر النابغة، شاعر المناذرة على حسان شاعر الغساسنة، مع أن النابغة قد مدح الغساسنة وأشار إلى يوم حليلة، وهو للحارث بن جبلة الغساني ملك الشام على المنذر ابن ماء السماء ملك الحيرة، وله فيهم قصائد أخرى.

وقد حمل النعمان بن المنذر مديح الشاعر للغساسنة على أنه ولاء سياسي في حين ذهب النابغة إلى شيء آخر وراح يفسره على أنه شكر على أيادٍ له عليه، شأنه في ذلك شأن غيره من الشعراء.

\*\*\*

ولما غزا النعمان بن الحارث الغساني بني حن، وهم من عذرة، التحم بنو حن وهم

(١) ديوان النابغة ص ٤٦.

(٢) الديوان ص ٦٥

(٣) الديوان ص ٨٧

قوم النابغة مع الغسانيين فهزموهم وحازوا على ما كان بأيديهم من غنائم لهم، فقال النابغة في هذه الواقعة:

لقد قلت للنعمان يوم لقيتسه      يسريدُ بني حُنْ ببرقة صادرِ  
تجنب بني حُنْ فإن لقاءهم      كرية وإن لم تلق إلا بصابرِ  
عظام اللهى أولاد عذرة إنهم      لهاميم يستلهونها بالخناجرِ  
هم منعوا وادي القرى عن عدوهم      بجمع مبير للعدو المكائرِ<sup>(١)</sup>

وقد افتخر الأعشى بشفاعه رجل من قيس بن ثعلبة في سبي بكر بن وائل في يوم أواره الأول، وفي يوم أواره الثاني لما بغى عمرو بن هند على طيء بإيعاز زرارة بن عدس، قال قيس بن جروة الطائي قصيدة منها:

فهبك ابن هند لم تعقك ملامةً      وما المرء إلا عهدُه وموائقه  
وكننا أناساً خافضين بنعمة      يسيل بها تلُع الملا وأبارقُه  
فأقسمتُ جهداً بالمنازل من منى      وما حَبَّ في بطحائهن درادقُه  
لئن لم تغير بعض ما قد فعلتم      لانتحين العظم ذو أنسا عارقُه

فسمي يومئذ «عارقاً»، فقال عمرو بن ترملة بن شعاث الطائي - وهو ابن عم قيس ابن جروة - : أيهجوني ابن عمك ويتوعدني، فقال: لا، والله ما هجاك ولكنه قال:

والله لو كان ابن جفنة جاركم      مسا إن كساكم غصّة وهوانا  
وسلاسلاً يبرقن في أعناقكم      وإذا لقطع تلکم الأقراننا  
ولكان عادته على جيرانه      ذهباً ورِيْطاً رادغاً وجفاننا

إلى آخر الخبر، وهو مفاضلة بين المناذرة والغساسنة<sup>(٢)</sup>.

وفي أعقاب يوم أواره الثاني قال لقيط بن زرارة يعير بني مالك بن حنظلة بإحراق

(١) الديوان، ص ١٢٧

(٢) النقائض ص ٦٥٢، ١٠٨١

عمرو إياهم، ويدعوهم إلى الثورة، وينعى على عمرو سياسته:

فأبلغُ لديك بني مالكِ      مُغْلَغِلَةً وَسِرَاةً الرَّبَابِ  
فإن امرءاً أنثمُ حوله      تحطّسون قبّته بالقبابِ  
يُهين سراتكُمُ عاماً      ويقتلكم مثل قتل الكلابِ  
فلو كنثمُ إبلاً أملحت      لقد نرّعت للمياه العذابِ  
ولكنكُم غنّتم تصطفى      ويترك سائرها للذئابِ  
لعمر أبيك أباي الخير ما      أردت بقتلهم من صوابِ  
ولا نعمة، إن خير الملوك أفضلهم في الرقابِ<sup>(١)</sup>

وهذا يظهر غدر الملك بقبيلته، وانتقاص القبيلة عليه، وتفضيل غيره عليه في معاملته لرعيته، ثم ظلم الملك لتميم، ودعوة شاعر منهم إلى نبذ الملك والقيام عليه.

\*\*\*

واقرا قول الأعشى يمدح «هوزة»:

سائل تميماً به أيام «صفقتهم»      لما رأهم أسارى كلهم ضرعاً  
وسط المشقّر في غرباء مظلمة      لا يستطيعون بعد الشرّ منتفعا  
فقال للملك أطلق منهم مئة      رسلاً من القوم مخفوضاً وما رقعاً<sup>(٢)</sup>

ونأتي إلى «يوم الصفقة» ونعرف أنه كان للفرس على تميم، وذلك أن تميماً كانت تحرس تجارة كسرى أنو شروان في طريقها إلى اليمن، فأراد هوزة بن علي الحنفي خفارتها وأخذ جعل تميم، ولكن تميماً نهبت التجارة وأسرت هوزة، ثم فدى نفسه، ثم احتال مع كسرى حتى استقدموا بني تميم إلى «المشقر» وهو حصن يدخل فيه الرجل فيقتل، حتى سبقه للأمر رجل، وقطع سلسلة الحصن وكشف الأمر فنارت تميم، وفي ذلك قال الأعشى يمدح هوزة<sup>(٣)</sup>.

(١) النقائض ص ٦٥٢، ١٠٨١

(٢) الديوان (ط أوروبا) ص ٨٧

(٣) ابن الأثير، الكامل ٢٧٥/١

وافتخر الأعشى فقال:

أما تميم فقد ذاقته عداوتنا      وقيس عيلان مس الخزي والأسف  
وجند كسرى غداة الحنو صبّحهم      منا غطاريف ترجو الموت وانصرفوا  
لو أن كل معدي كان شاركننا      في يوم ذي قار ما أخطأهم الشرف

و«يوم ذي قار» هذا مشهور، وقد كان ليكر على الفرس، والكلام فيه كثير معروف، وللشعر فيه مكان، وهو الذي قال فيه النبي - ﷺ -: اليوم أول يوم انتصف فيه العرب من العجم، وبني نصرُوا.

وقال العذيل العجلي في ذلك:

ما أوقد الناس من نارٍ لمكرمةٍ      إلا اصطلينا وكنا موقدي النار  
وما يعدّون من يوم سمعت به      للناس أفضل من يوم بذى قار  
جننا بأسلاّبهم والخيل عابسةً      لما استلبنا لكسرى كل أسوار<sup>(١)</sup>

وقد يقف الشاعر القديم من قبيلته موقف الناقد، ومن ذلك ما نفيده من قول قريط ابن أنيف:

لو كنت من مازن لم تستبح إبلي      بنو اللقيطة من ذهل بن شيبانا  
إذن لقام بنصري مشعرٌ خشنٌ      عند الحفيظة إن ذو لوثة لانا  
قوم إذا الشرُّ أبدى ناجذيه لهم      طاروا إليه زرافاتٍ ووحداناً  
لا يسألون أخاهم حين يندبهم      في النائبات على ما قال برهاننا  
لكن قومي وإن كانوا ذوي عددٍ      ليسوا من الشرِّ في شيء وإن هانا<sup>(٢)</sup>

ولعل مما يندرج في هذا موقف الصعاليك من أهلهم وقومهم، ومن هذا خطاب الشنفرى في قوله:

(١) العقد الفريد ٢/ ٨٢

(٢) الحماسة (التبريزي) ١ / ٨

أقيموا بنسي أمي صدور مطيكم      فإني إلى قوم سواكم لأميل  
فقد حُمت الحاجات والليل مقمرٌ      وشُدَّت لِطَيَّاتٍ مَطَايَا وَأَرْحُلُ

وهو حين يصف مايعانيه في عيشه وما يلقاه من هول يشعر القارىء بوحده، وأنه لم ينل من أهله وقومه ما يعينه على الحياة، فهو يقول:

أديم مطال الجوع حتى أميته      وأضرب عنه الذكر صفحاً فأذهل  
واستفُّ ترب الأرض كيلا يرى له      عليّ من الطول امرؤ متطول<sup>(١)</sup>

ولنا أن نقول هذا فيما عاناه الصعاليك الآخرون كلُّ على طريقته في الحياة، ولنستمع إلى معاناة عروة بن الورد في قوله:

لحا الله صعلوكم إذا جنَّ ليله      مصافي المشاش ألفا كل مجزِر  
يغد الغنى من دهره كل ليلة      أصاب قراها من صديق مُيسِر  
ينام عشاءً ثم يُصبح ناعساً      يخثُ الحصى عن جنبه المتعَفِر  
يُعين نساء الحي ما يستعِنه      ويمسي طليحاً كالبعير المحسّر<sup>(٢)</sup>

ومن شعر الفخر قول عمرو بن كلثوم التغلبي:

فأبوا بالنهب وبالسبايا      وأبنا بالملوك مصفديننا<sup>(٣)</sup>

وإلى هذا يشير امرؤ القيس:

ملوكاً من بني حجر بن عمرو      يساقون العشيّة يقتلوننا  
فلو في يوم معركة أصيبوا      ولكن في ديار بني مَرينا  
ولم تُغسل جماجمهم بغسل      ولكن في الدماء مُرمَلينا  
تظلل الطير عاكفةً عليهم      وتنتزع الحواجب والعيونا<sup>(٤)</sup>

(١) الديوان (في الطرائف الادبية صنعة الميمني)

(٢) الديوان (ط - صادر) ص ٤٣

(٣) شرح المعلقات السبع للزوزني (ط صادر) ص ١٢١

(٤) الديوان ص ٢٠٠

وخبّر هذه الأبيات أن كندة قد قام ملكها أول الأمر برعاية تبابعة اليمن، إذ ملكوا حُجر بن عمرو آكل المرار على بكر بن وائل، فنزل بيطن عاقل، وأغار ببكر، فانتزع ما كان بأيدي اللخميّين من أرض بكر، فاتصل ملوكها بالفرس والروم والمناذرة والغساسنة وبعض القبائل البدوية، وكان لهم أيام وشعر إلى آخر أيامهم وزوال ملكهم. ومن ذلك ما كان من امتلاك الحارث بن عمرو الكندي الحيرة مكان المنذر بن ماء السماء أيام قباز كسرى فارس، ولكن كسرى أنوشروان أعاد المنذر في مكانه وهرب الحارث، ولكن بني تغلب وغيرهم انتهبوا ماله، وأخذوا ثمانية وأربعين من بني آكل المرار فيهم عمرو ومالك ابنا الحارث، فقتلهم المنذر في ديار بني مرينا، وفيهم قال عمرو ابن كلثوم ما قد ذكرنا فكان ذلك مدعاة لقول امرئ القيس.

\*\*\*

وننشد قول امرئ القيس:

بكي صاحبي لما رأى الدربَ دونه      وأيقن أنّا لاحقان بقيصرا  
فقلتُ لــــه لا تبك عينك إنما      نحاول ملكاً أو نموت فنُعذراً<sup>(١)</sup>

والبيتان يشيران إلى أن الشاعر قد يئس من العرب كما ورد في الأخبار فتوجه إلى السموأل بن عاديا ل يكتب إلى الحارث بن أبي شمر الغساني بالشام ليوصله إلى قيصر ففعل، وإلى ذلك أشار البيتان.

وقصة كندة هذه تدور حول ملك قام بالجزيرة، ولكنه اتصل باليمن أول الأمر، وبالمناذرة والفرس إبان سطوته وقوته، وبالغساسنة والروم آخر أيامه، وكانت له مع القبائل ولا سيما بني أسد وقائع.

\*\*\*

وجاء في «السيرة» قول رزاح بن كلاب ينصر أخاه قصياً على خزاعة لينتزع منها ولاية الكعبة:

(١) الديوان (ط. دار المعارف)

لما أتتاني عن قُصِيّ رسولٍ      فقال الرسول: أجيبا الخليلا  
نهضنا إليه نقود الجياد      ونطرح عنا الملول الثقيل  
فهنّ سراع كسورد القطا      يُجبن بنا من قُصِيّ رسولا  
فلما أتينا إلى مكة      أبحنا الرجال قبيلاً قبيل  
قتلنا خزاعة في دارها      وبكراً قتلناه جيلاً فجيلاً<sup>(١)</sup>

\*\*\*

ويقول الزبير بن عبد المطلب في حلف الفضول:

حلفتُ لنعقِـدَنُ حلفاً      وإن كنا جميعاً أهل دار  
نسميه الفضول إذا عَقَدْنَا      يُعزّ به الغريب لدى الجوار  
ويعلم من خوالي البيت أننا      أباة الضيم نهجرُ كل عار<sup>(٢)</sup>

و«حلف الفضول» عمدت إليه قريش بعدما تعبت من حروب «الفجار» التي دفعت إليها غير راغبة فيها، وقال بعضهم بعد منصرفه من «الفجار»:

نحن كنا الملوک من آل نجدٍ      وحماة الذمار عند الذمار  
ومنعنا الحجون من كل حيٍّ      ومنعنا الفجار يوم الفجار<sup>(٣)</sup>

وكان الشعراء يشاروا في عهود الإسلام ما كان لصيقاً بالجاهلية من حيث المفاخرة والمنافرة والانحياز لقبائلهم ومجاميعهم، فهذا حسان بن ثابت شاعر الرسول، يظهر الشعور بالتفوق والسيادة في شعره وهو في الإسلام، قال:

وكنّا ملوك الناس قبل محمدٍ      فلما أتى الإسلام كان لنا الفضلُ  
أولئك قومي خير قوم بأسرهم      فما عُدّ من خير فقومي له أهل<sup>(٤)</sup>

(١) سيرة ابن هشام ١٣٣/١

(٢) مروج الذهب ١٦٨/٢

(٣) المصدر السابق ١٦٧/٢

(٤) الديوان ص ٢٨٤

وليس هذا بعيداً عن طريقته في شعره وهو في الجاهلية، كقوله في قصيدة مدح بها عمرو بن الحارث الغساني:

ولقد تقلدنا العشيرة أمرها      ونسود يوم النائبات ونعتلي  
ويسود سيدنا ججاج سادة      ويصيب قائلنا سواء المفصل  
ونحاول الأمر المهم خطابه      فيهم ونفصل كل أمر مُعضل  
وتزور أبواب الملوك ركابنا      ومتى نُحكّم في البرية نعدل<sup>(١)</sup>

ومثل هذا كثير في شعره في الجاهلية فمنه قوله:

لنا حاضر فغمّ وبادٍ كأنه      شماریخ رضوى عزّة وتكرّما  
متى ما تزننا من معدّ بعصبة      وغسان نمنّع حوضنا أن يهدّما  
وُلدنا بني العنقاء وابني مُحزّق      فأكرم بنا خالاً وأكرم بنا ابنما<sup>(٢)</sup>

\*\*\*

وفي الحقبة المتقدمة من تاريخ الإسلام كان للشعراء مكان في وقائع المسلمين مع المشركين، وكان لحسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة مواقف للدفاع عن الإسلام والرسول الكريم، فكانوا إذا رثوا قتلى المسلمين، انبرى لهم شعراء قريش ينقضون عليهم ما ذهبوا إليه، وكان يقابل الشعراء المسلمين، وهم ثلاثة من الأنصار، ثلاثة شعراء من قريش وهم عبد الله بن الزبير، وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب، وعمرو بن العاص<sup>(٣)</sup>.

وأنت تجد الخصومة بين القبائل بقيت هي نفسها في العصور الإسلامية كما كانت في عصور ما قبل الإسلام، فالشاعر المسلم، وهو من قريش، يكتفي في هجائه لقريش بذكر هزيمتهم فهذا ضرار بن الخطاب يقول:

(١) الديوان ٢٦٨

(٢) الديوان ٤٢٦

(٣) الأغاني (ط. دار الثقافة) ١٣٨/٤ - ١٧٤.

فإن تظفروا في يوم بدر فإنما  
وبالنفر الأخيار هم أولياؤه  
يُعدُّ أبو بكر وحمزة فيهم  
بأحمد أمسى حدكم وهو ظاهر  
يُحامون في اللأواء والموت حاضر  
ويدعى عليُّ وسَطَ مَنْ أنت ذاكر<sup>(١)</sup>

وضرار هذا غير كعب بن مالك الأنصاري الذي يهجو قريشاً فيشمت بما نالهم من  
القتل والهزيمة، مذكراً إياهم بمصيرهم إلى النار، ولا يقتصر على ذكر هزيمتهم كما فعل  
ضرار<sup>(٢)</sup>.

ويمدح الرسول طالب بن أبي طالب ويذكر الحرب في بدر ويكتفي بذكر هزيمة  
قريش ويأسى على قتلاهم، ويتمنى لو أن الجميع اتفقوا مكبهم ومدنيهم على الانصار،  
وهذا ما كان يوجه إلى الهاشميين من نقد من كونهم لا يهمهم إلا النبي فهم يخشون أن  
يناله ما ينال الآخرين من القتل<sup>(٣)</sup>، وفي هذا يقول طالب:

فيا أخويننا عبدَ شمس ونوفلا فدي لكما لا تبعثوا بيننا حربا  
ولا تصبحوا من بعد ودِّ وألفية أحاديث فيها كلكم يشتكى النكبا  
فما إن جنينا في قريش عظيممة سوى أن حمينا خير من وطىء التربا  
فوالله لا تنفك نفسي حزينمة تمللُ حتى تصدقوا الخرج الضربا<sup>(٤)</sup>

\*\*\*

ونقرأ قول أبي سفيان بن حرب وقد مر بييت علي بن أبي طالب، وكان الناس  
يبايعون أبا بكر، وقد ازدحم الناس على البيعة، فوقف عليه وأنشد:

بني هاشم لا تطمعوا الناس فيكم  
فما الأمر إلا فيكم وإليكم  
أبا حسنٍ فاشدد بها كف حازم  
ولا سيما تيم بن مرة أو عدي  
وليس لها إلا أبو حسنٍ علي  
فإنك بالأمر الذي يرتجي ملي

(١) السيرة ١٤/٣

(٢) المصدر السابق ١٥/٣

(٣) الأغاني ١٨٢/٤

(٤) السيرة ٢٧/٣

فقال علي — رضي الله عنه — لأبي سفيان: إنك تريد أمراً لستنا من أصحابه، وكذلك رفض العباس بن عبد المطلب<sup>(١)</sup>، وقال بعض ولد أبي لهب بن عبد المطلب يدعو لعلي وينتصر له:

ما كنتُ أحسب أن الأمر منصرف  
عن هاشم ثم منها عن أبي حسن  
اليس أول من صلى لقبلكم  
وأعلم الناس بالقرآن والسُنن<sup>(٢)</sup>

ولما تم الأمر لأبي بكر، قال أبو عبدة القرشي:

شكراً لمن هو بالثناء حقيق  
ذهب اللجاج وبويع الصديق  
من بعد ما زلت بسعد نعله  
ورجاء رجاء دونه العيوق  
إلى أن يقول:

إن الخلافة في قريش مالكم  
فيها ورب محمد معروق<sup>(٣)</sup>

\*\*\*

وكان من ذلك أن تحرك الأنصار فذكروا المشاهد التي حضروها في نصرته الإسلام على قريش، فقال حسان:

نصرنا وأويننا النبي ولم نخف  
حروف الليالي والبلاء على رَجُل  
بذلنا لهم أنصاف مال أكفنا  
كقسمة أيسار الجزور من الفضل

إلى أن يقول:

فكان جزاء الفضل منا عليهم  
جهالتهم حمقاً وما ذاك بالبدل

فغضبت قريش، وصار الشعراء يردون على الأنصار شعرهم<sup>(٤)</sup>.

(١) شرح نهج البلاغة ٧/٦

(٢) المصدر السابق ٨/٦

(٣) المصدر السابق

(٤) المصدر السابق ١٠/٦



سل الناس عنا كل يوم كربة  
السنا نعاطي ذا الطماح لجاجه  
وعارضة شهباء تخطر بالقنا  
فرويت رمحي من كتيبة خالد  
إذا ما التقينا دارعين وحسرا  
ونطعن في الهيجا إذا الموت اقفرا  
ترى البلق في حافاتها والسنورا  
واني لأرجو بعدها أن أعمرا<sup>(١)</sup>

\*\*\*

وقال القعقاع بن عمرو في أيام الحيرة زمن أبي بكر:

سقى الله قتلى بالفترات مقيمة  
فنحن وطئنا بالكواظم هرمزاً  
ويوم احطنا بالقصور تتابعت  
على حبرة الروحاء إحدى المصارف<sup>(٢)</sup>  
وأخرى بأثباج النجاف الكوانف  
وبالثني قرني قارن بالجوارف

\*\*\*

وسار خالد بن الوليد بعد أن انتهى من قتال المرتدين نحو الشام، فمر بطريقه، وهو مفوز، من قراقر إلى سوى فأغار على أهله، وهم من بهراء، قبيل الصبح، وكان ناس منهم يشربون الخمر في جفنة اجتمعوا عليها ومغنيهم ينشد:

ألا علاني قبل جيش أبي بكر  
ألا علاني بالزجاج وكرراً  
أظن خيول المسلمين، وخالداً  
لعل منايانا قريب وما ندري  
علي كميت اللون صافية تجري  
ستطرقكم قبل الصباح من البشر

فقتل مغنيهم تحت الغارة وسال دمه في تلك الجفنة<sup>(٣)</sup>.

\*\*\*

---

(١) تاريخ الرسل والملوك ١٩٠٥/٥

(٢) المصدر السابق ٢٠٤٦/٥

(٣) تاريخ الرسل والملوك ٢٤٠٦/٥

كان الوليد بن عقبة والياً على الكوفة في عهد عثمان بن عفان، وكان يشرب مع ندمائه ومغنييه حتى الصباح، وقد صلى بالناس الصبح أربعة وأفسد الصلاة، وقد دخل قصره يترنح ثملاً ينشد أبياتاً لتأبط شراً:

ولست ببعيداً عن مدام وقينةٍ      ولا بصفاً صليدٍ عن الخير معزل  
ولكنني أروي من الخمر هامتي      وأمشي الملا بالساحب المتسلل

وفي ذلك يقول الحطيئة:

شهد الحطيئة يومَ يلقي ربه      أن الوليد أحقُّ بالعذر  
نادى وقد تمت صلاتهم      أزيدكم؟ ثملاً وما يدري  
ليزيدهم أخرى ولو قبلوا      لقرنت بين الشفع والوتر  
حبسوا عنانك في الصلاة ولو      خلّوا عنانك لم تزل تجري

وقد بدا من عثمان شك في شهادة الشهود عليه فلجأوا إلى عليّ، فحمل عثمان على إقامة الحدّ عليه<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

وقتل عثمان بن عفان فرثاه حسان بن ثابت، وكان عثمانى الرأي فقال:

يا ليت شعري وليت الطير تخبرني      ما كان شأن عليّ وابن عَقَانَا  
لنسمعَنَّ وشيكاً في ديارهم:      الله أكبر يا ثارات عثمانَا

\*\*\*

وكان الوليد بن عقبة بن أبي معيط أخا عثمان لأمه، فسمع في الليلة الثانية من مقتل عثمان يندبه ويقول:

بني هاشم إيه فما كان بيننا      وسيف ابن أروى عندكم وحرائبه  
بني هاشم ردّوا سلاح ابن أختكم      ولا تنهبوه، ما تحلّ مناهبه  
غدرتم به كيما تكونوا مكانه      كما غدرت يوماً بكسرى مرابيه

(١) مروج الذهب ٢/ ٢٢٤ (نشرة محيي الدين عبد الحميد)

فأجاب الفضل بن العباس بن أبي لهب عن الشعر وردَّ على الوليد ما رَمَى به بني  
هاشم فقال:

فلا تسألونا سيفكم إن سيفكم أضيع وألقاه لدى الروع صاحبه  
سلوا أهل مصر عن سلاح ابن أختنا فهم سلبوه سيفه وحرَّاثبه  
وكان وليَّ العهد بعد محمد علي وفي كل المواطن صاحبه<sup>(١)</sup>

\*\*\*

وجاء في «تاريخ الطبري»<sup>(٢)</sup>:

«... كانت العرب توقع وقعة العرب وأهل فارس في القادسية فيما بين العذيب إلى  
عدن أبين، وفيما بين الأبلَّة وأيلة، يرون أن ثبات ملكهم وزوالهم بها، وكانت الأذان في  
كل بلد مصيخة إليها تنظر ما يكون من أمرها، حتى كان الرجل ليريد الأمر فيقول: لا  
أنظر فيه حتى أنظر ما يكون من أمر القادسية، فلما كانت وقعة القادسية سارت بها  
الجن فأتت به ناساً من الإنس، فسبقت أخبار الإنس إليهم، قالوا فبدرت امرأة ليلاً على  
جبل بصنعاء لا يُدرى ممن هي، وهي تقول:

فحييت عنا عكراً ابنة خالدٍ وحيتك عنِّي الشمس حين طلوعها  
وحيتك عنِّي عصابة نخمية أقاموا لكسرى يضربون جنوده  
ومسا خير زادٍ بالقليل المصدِّدٍ وحياك عنِّي كلُّ ناجٍ مُقرِّدٍ  
حسان الوجوه آمنوا بمحمدٍ بكل رقيق الشفرتين مهتدٍ

وسمع أهل اليمامة مجتازاً يغني:

وجدنا الأكثرين بني تميم همُّ ساروا بأرعن مكفهرٍ  
بحور لأكاسر من رجالٍ تركن لهم بقادس عزَّ فخرٍ  
مقطعة أكفهم وسوق غداة الروع أصبرهم قتالا  
إلى لجب فسزرتهم رعالا كأسد الغاب تحسبهم جبالا  
وبالخيقين أساماً طوالا بمردي حيث قابلت الرجالا

(١) مروج الذهب ٢/ ٢٣٤

(٢) تاريخ الرسل والملوك ج ٢، ق ٢، ص ٢٣٦٤

وسمع بنحو ذلك في عامة بلاد العرب.

\*\*\*

وقال عروة بن زيد الخيل في فتح الحيرة في عهد عمر بن الخطاب، وكان القائد المثنى ابن حارثة الشيباني، وقد هزم مهران، وقتل في هزيمة الفرس إلى المدائن:

هاجت لعروة دار الحي أحزاننا	واستبدلت بعد عبد القيس همدانا
وقد أراننا بها والشمل مجتمع	إذ بالنخيلة قتلى عند مهراننا
أيام سار المثنى بالجنود لهم	فقتل القوم من رَجُلٍ وركباننا
سما لأجناد مهران وشيعته	حتى أبادهم مثنى ووجدانا
... ..	... ..
... ..	... ..
... ..	... .. (١)

\*\*\*

وجاء في «الأخبار الطوال»<sup>(٢)</sup> أيضاً مقطوعات لبشر بن أبي ربيعة، وعروة بن زيد الخيل<sup>(٣)</sup>، وقيس بن زهير، فخر فيها الشعراء بما كان في القادسية، وما كان في حرب المسلمين مع الروم، ومن ذلك قول قيس بن زهير:

جلبت الخيل من صنعاء تردي	بكل مدجج كالليث حامي
إلى وادي القرى فديار كلب	إلى اليرموك والبلد الشامي
فلما أن زوينا السروم عنها	عطفناها ضوامر كالجلام
فأبنا القادسية بعد شهر	مسومة دوابرها دوامي
فناهضنا هناك جموع كسرى	وأبناء المرازبة العظام

(١) الدينوري، الأخبار الطوال ص ١١٥، وقد نسبت الأبيات في تاريخ الطبري ج ٢ ق ٢ ص ٢٢٠٠ إلى الأعور الشني.

(٢) الأخبار الطوال ص ١٢٥

(٣) والذي ورد في الأخبار الطوال غلطاً هو: عروة بن الورد

وقال عروة بن زيد الخيل:

صبرتُ لأهل القادسية معلماً  
فطاعنتهم بالرمح حتى تبددوا  
حمدت إلهي إذ هداني لدينه  
ومثلي إذا لم يصبر القـرن يصبرُ  
وضاربتهم بالسيف حتى تـكـرروا  
فلله أسعى ما حييت وأشكرُ

وقال بشر بن أبي ربيعة:

ألمَّ خيال من أميمة موهنا  
وقد جعلت إحدى النجوم تغور  
إلى أن يقول:

وجلت بباب القادسية ناقتي  
وعشية ود القوم لو أن بعضهم  
إذا برزت منهم إينسا كتيبة  
وسعد بن وقاصٍ عليّ أمير  
يُعار جناحي طائر فيطير  
أتينا بأخرى كالجبال تمور

\*\*\*

ومما أورده الطبري في حروب المسلمين مع الروم قول زياد بن حنظلة في عهد عمر  
ابن الخطاب:

تذكرت حرب الروم لما تناولت  
وإذ نحن في أرض الحجاز وبيننا  
وإذ أرطبون الروم يحمي بلاده  
وإذ نحن في عام كثير نرائله  
مسيرة شهرٍ بينهن بلائله  
يحاوله قـرم هناك يساجله<sup>(١)</sup>

\*\*\*

وكان الأحنف بن قيس قد بعث الأقرع بن حابس إلى الجوزجان سنة ٣٢ هـ فسار في  
جريدة خيل إلى بقية بقيت من الزحوف الذين هزمهم، فقاتلهم الأقرع، وجال المسلمون  
جولةً، فقتل فارسان من فرسانهم، ثم أظفر الله المسلمين بهم فهزموهم وقتلوهم، فقال

(١) تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ق ٢ ص ٢٤١٠، وفيه أمثلة أخرى في الصفحات: ٢٤١١، ٢٥٠٨، ٢٢٦٥، ٢٦٥٢، ٢٧٠٨، وكلها في عهد عمر.

كثير النهشلي:

سَقَى مُزْنَ السَّحَابِ إِذَا اسْتَهَلَّتْ      مصارع فتية بالجوزجانِ  
إلى القصرين من رستاق خوطِ      أفادهمُ هناك الأقرعانِ  
والقصيدة طويلة<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

وكان للرجز مكان كالشعر في وقائعهم، فلما قتل عثمان بن عفان بايع كثير من الناس علياً، وتخلف بنو أمية وآخرون منهم حسان بن ثابت ومسلمة بن مخلد وأبو سعيد الخدري، ولما تمت البيعة لعلي وخطب خطبته، وأراد الذهاب إلى بيته قالت السبئية:

خَذْهَا إِلَيْكَ وَاحْذَرْنَ أَبَا حَسَنٍ      إِنَّا نَمُرُّ الْأَمْرَ إِمْرَارَ الرَّسَنِ  
صَوْلَةَ أَقْوَامٍ كَأَسْدَادِ السُّفَنِ      بِمَشْرِفَيَاتِ كَعْبُدْرَانَ اللَّبَنِ  
وَنَطْعِنُ الْمَلِكَ بَلِينِ كَالشَّطَنِ      حَتَّى يُمَسِّرَنَّ عَلِيٌّ غَيْرَ عَنَنْ<sup>(٢)</sup>

والسبئية أتباع عبد الله بن سبأ الذين خبّوا في الفتنة الأولى على عثمان وحرّضوا عليه في الأمصار، وتردد زعيمهم بين البصرة والكوفة ومصر، وبث الدعوة لعلي، وصي النبي، وأولى الناس بالخلافة.

وضربت الركبان إلى الشام بنعي عثمان وتحريض معاوية على الطلب بدمه، فبينما معاوية ذات يوم جالس إذ دخل عليه رجل فقال: السلام عليك يا أمير المؤمنين، فقال معاوية: وعليك، من أنت لله أبوك، فقد روعتني بتسليمك علي بالخلافة قبل أن أنالها، فقال: أنا الحجاج بن خزيمة بن الصمة، قال: ففيم قدمت؟ قال: قدمت قاصداً إليك بنعي عثمان، ثم أنشأ يقول:

إِنَّ بَنِي عَمِّكَ عَبَسَدَ الْمَطْلَبِ      هُم قَتَلُوا شَيْخَكُمْ غَيْرَ الْكَذِبِ  
وَأَنْتَ أَوْلَى النَّاسِ بِالرَّوْثِبِ قَتِيبِ      وَسِرِّ مَسِيرِ الْمُحْذَلِّ الْمُتَكَسِّبِ

(١) الطبري ج ٢ ق ٢ ص ٢٩٠٢

(٢) المصدر السابق ص ٣٠٧٩

ثم قال له: وإنك تقوى بدون ما يقوى به علي، فإن معك قوماً لا يقولون إذا سكّت، ويسكتون إذا نطقت، ولا يسألون إذا أمرت. ومع علي قوم يقولون إذا قال، ويسألون إذا سكت، فقليلك خير من كثيره، وعلي لا يرضيه إلا سُخطك، ولا يرضى بالعراق دون الشام، وأنت ترضى بالشام دون العراق، فضاقت معاوية بما أتاه الحجاج بن خزيمة ذرعاً فقال:

اتاني أمرٌ فيه للناس غمّة	وفيه يكاء للعيون طويلاً
مصائب أمير المؤمنين وهذه	تكاد له صمّ الجبال تزول
تداعت عليه بالمدينة عصابة	فريقان منهم قائل وخذول
سألحها حرباً عواناً ملحة	وإني بها من عامنا لكفيل <sup>(١)</sup>

\*\*\*

وتحوّلت عائشة إلى بني أمية، وإذ هي في طريقها إليهم، لقيها عند «سرف» عبد بن أم كلاب وهو عبد أبي سلمة، وحاورها في مقتل عثمان وخلافة علي، فقالت: قُتِلَ واللّه عثمان مظلوماً، واللّه لأطلبين بدمه، فقال لها: ولِمَ؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لانت، فقد كنت تقولين: اقتلوا نعتلاً فقد كفر، قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه، فقال لها ابن أم كلاب:

منك الببذاء ومنك الغيز	ومنك الرياح ومنك المطر
وأنت أمرت بقتل الإمام	وقلت لنا إنه قد كفر <sup>(٢)</sup>
...	...

وقد أقبل جارية بن قدامة السعدي فقال: يا أم المؤمنين، واللّه لقتل عثمان بن عفان أهون من خروجك من بيتك على هذا الجمل الملعون عرضة للسلاح، ثم خرج غلام شاب من بني سعد فلام طلحة والزبير على إخراجهما عائشة دون نسائهما، ثم اعتزل وقال:

(١) الأخبار الطوال ص ١٥٦

(٢) تاريخ الرسل والملوك ج ٢ دق ٢ ص ٣١١٢، ومروج الذهب ٢/٢٤٦ وفيه أن الأبيات قد نسبت إلى عمار بن ياسر





لمن رايةً سوداءُ يخفق ظلها  
يقدمها في الموت حتى يزيرها  
أذقنا ابن حرب طعننا وضربنا  
... ..  
إذا قيل قدّمها حصينُ تقدّما  
حياض المنايا تقطر الموت والدماء  
بأسيافنا حتى توتى واحجما  
... .. (١)

\*\*\*

وقد يقال: إنه كان عليّ أن يأخذ برأي المغيرة بن شعبة، وإبقاء معاوية على الشام حتى تلتزمه طاعة عليّ، فإذا استقرت الأمور رأى فيه رايه، ولكن علياً أبى أن يأخذ برأي المغيرة، فقال المغيرة:

نصحتُ علياً في ابن هندٍ مقالة  
وقلت له: أرسل إليه بعهد  
ويعلم أهل الشام أن قد ملكته  
فلم يقبل النصح الذي جئته به  
فردت فلا يسمع لها الدهر ثانية  
على الشام حتى يستقر معاوية  
وأُمّ ابن هندٍ بعد ذلك هاوية  
وكانت له تلك النصيحة كافية<sup>(٢)</sup>

وقال عمرو بن العاص:

معاوي لا أعطيك ديني ولم أنل  
فإن تعطني مصراً فأربح صفقة  
به منك دنيا فانظرن كيف تصنع  
أخذت بها شيخاً يضرُّ وينفع<sup>(٣)</sup>

\*\*\*

واستمر القتال في صبح ليلة لقاء جيش علي وجيش معاوية، وكاد الأمر يتم لعلي، ونادت مشيخة أهل الشام: الله الله في الحرمات والنساء والبنات، فقال عمرو بن العاص:

(١) الطبري ٢٣٣١٦ ومروج الذهب ٢/٢٧٠

(٢) مروج الذهب ٢/٢٥٦

(٣) مروج الذهب ٢/٢٤٠

«أيها الناس من كان معه مصحف فليرفعه في رمحه، فكثرت في الجيش رفع المصاحف، وارتفعت الضجة ونادوا: كتاب الله بيننا وبينكم، من لثغور الشام بعد أهل الشام، ومن لثغور العراق بعد أهل العراق، ومن لجهاد الروم؟ ومن للكفار؟ ورفع عسكر معاوية نحواً من خمسمئة مصحف، وفي ذلك يقول النجاشي بن الحارث:

فأصبح أهل الشام قد رفعوا القنا      عليها كتاب الله خير قرآن  
ونادوا علياً يا ابن عم محمد      أما تتقي أن يهلك الثقلان

حتى خدع بذلك أهل العراق، وتركوا القتال على الرغم من علي، وبعد ما كثر القتل، وبرم الناس من هذه البلايا، وسمعت امرأة بصفين، وقد قتل لها ثلاثة أولاد وهي تقول:

أعيني جوداً بدمع سرب      علي فتية من خيار العرب  
وما ضرهم غير حين النفوس      بأي أمير قريش غلب<sup>(١)</sup>

\*\*\*

ثم كانت مسألة «التحكيم» المشهورة.

وقد سخط أهل العراق على أبي موسى الأشعري، وندموا على ما كان من اختيارهم له ليكون خصيماً لعمر بن العاص، وقال أيمن بن خريم بن فاتك الأسدي، وهو من أهل الشام، وكان قد اعتزل قومه:

لو كان للقوم رأي يهتدون به      عند الخطوب رموكم بابن عباس  
لكن رموكم بشيخ من نوي يمن      لم يدر ما ضرب أخماس لأسداس<sup>(٢)</sup>

\*\*\*

وكان علي شديداً في الرأي والحكم وإقامة الحدود، سألته أخوه عقيل شيئاً من بيت

(١) مروج الذهب ٢/ ٢٧١، ٢٧٥.

(٢) المصدر السابق ٢/ ٢٧٩ والأخبار الطوال ص ١٩٦، وفي «المروج» ٢/ ٢٧٨ شعر لابن عباس لام فيه أبا موسى الأشعري، وشعر في تأييد علي.



ألا أيها الشارون قد حان لامرئ  
أقمتم بدار الخاطئين جهالة  
فشدوا على القوم العداة فإنما  
شرى نفسه لله ان يترخا  
وكل امرئ منكم يُصاد ليقتلا  
إقامتكم للذبح رأياً مضلاً  
... .. (١)

\*\*\*

ولكن المغيرة قد بعث في قتالهم حتى هدأت ثائرتهم بعد ما دوخوا جيوش العراق، ثم قسا عليهم عبيد الله بن زياد، فقتل منهم جماعة بينهم عروة بن أديه فخرج مرداس في أربعين رجلاً، فأرسل إليهم ابن زياد ألفي رجل عليهم ابن حصن التميمي، فهزموهم الخوارج، وقال شاعرهم في ذلك:

ألفاً مؤمن فيما زعمتم ويهزمهم بأسك أربعوناً (٢)

على أن ابن زياد قد أرسل جيشاً آخر فهزموهم وقتل أبا بلال مرداساً، وذلك سنة ٦١هـ.

\*\*\*

وقد كان معاوية سمحاً مع خصومه، حليماً يعمل في أناة ولين، وقد يصطنع الحيلة على عكس ما كان عليه ابنه يزيد من صرامة جاهلية. روى صاحب «الأغاني» في ترجمة النعمان بن بشير الأنصاري، قال: شيب عبد الرحمن بن حسان برملة بنت معاوية فقال:

رَمَلٌ، هل تذكرين يوم غزالٍ  
إذ تقولين عمرك الله هل شيء  
إذ قطعنا مسيرنا بالتمني  
وان جلّ سوف يسليك عنى  
ك كما قد أراك أطمعت منى  
طمعت يا ابن حسان في ذا

(١) الطبري ج ٢ ق ١ ص ٢٦.

(٢) المصدر السابق، ج ١ ص ١٨٧.

فقال له معاوية: أين أنت من أختها هند؟ وأما يزيد فقد غضب، وحمل الأخطل على هجاء الأنصار فقال:

وَإِذَا نَسَبْتَ ابْنَ الْفُرَيْحَةِ خِلْتَهُ      كَالجَّحَشِ بَيْنَ حِمَارَةٍ وَحِمَارٍ  
فَشَكَاهُ النُّعْمَانَ بْنَ بَشِيرٍ إِلَى مَعَاوِيَةَ وَهَدَّدَ مَعَاوِيَةَ ففرضاه<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

واستتب الأمر لمعاوية بعد تنازل الحسن بن علي، فسلك سبيل اللين والشفقة، فسعى إلى أخذ البيعة لابنه يزيد وبذلك جعل الحكم في بني أمية، وجعله «هرقلية» كما قيل، وأشار إلى هذا عبد الرحمن بن أبي بكر، وقال فيه عبد الله بن همام السلولي:

فَإِنْ تَأْتُوا بِرَمْلَةٍ أَوْ بِهِنْدٍ      نَبَايَعُهَا أَمِيرَةٌ مُؤْمِنِينَ  
إِذَا مَا مَاتَ كَسْرِي قَامَ كَسْرِي      نَعْدُ ثَلَاثَةَ مَتَنَاسِقِينَ<sup>(٢)</sup>

\*\*\*

وقد أثارت سياسة الأمويين سخط الموالي لأنها كانت عربية خالصة، فأنحازوا إلى اليمينية وسعوا إلى إسقاط الأمويين.

ومن هنا قويت الأحزاب فكان بنو هاشم (علويين وعباسيين)، والزبيرون، والخوارج، وكان من نتائج ذلك أن انحاز الشعراء إلى هذه الأحزاب، وظهرت الأسر وأخذت مكانها في الحركة السياسية، وكان من ذلك أن ظهرت الخصومات الأدبية تثيرها النزعات السياسية<sup>(٣)</sup>.

\*\*\*

وقد حمل الحكم الأموي الشعراء على مناهضة خصومهم، فقد قال الراعي النميري

---

(١) الأغانى (ط. دار الثقافة ببيروت) ١٥ / ٨١ - ٨٥.

(٢) مروج الذهب ٢ / ٢٩.

(٣) وفي تاريخ الطبري، ومروج الذهب، والأخبار الطوال فوائد في هذا الباب أشرنا إلى شيء منها، وإذا جئنا إلى كتاب «الكامل» للمبرد وهو كتاب أدب ولغة، وجدناه حافلاً بأخبار الخوارج، انظر الجزء الثاني (ط زكي مبارك ومحمود محمد شاكر).

يخاطب عبد الملك بن مروان متبرئاً من ابن الربير والخوارج النجدات:

إني حلفتُ على يمينِ بَرَّةِ      لا أكذب اليومَ الخليفةَ قَيْلا  
ما إن أتيتُ أبا خبيبٍ وافتداً      يوماً أريدُ لبيعتي تبديلاً  
ولا أتيتُ نُجيدةَ بن عويمرٍ      أبغي الهدى فيزيدني تضليلاً<sup>(١)</sup>

\*\*\*

وكان زياد بن أبيه شديداً على الخوارج إبان ولايته للعراق، وكذلك كان ابنه عبيد الله، فقد قتل هذا عروة بن أدية، من زعماء الخوارج، وقد غضب أخوه لقتله وهو أبو بلال مرداس بن أدية، وخرج إلى الأهواز في أربعين رجلاً من الخوارج، فأرسل إليهم ابن زياد الفين برياسة ابن حصن التميمي، فهزمت الخوارج، فقال في ذلك عيسى بن فاتك الحبطي:

ألفا مؤمنين فيما زعمتم      ويهزمهم بأسك أربعونا  
كذبتهم ليس ذلك كما زعمتم      ولكن الخوارج مؤمنونا  
هم الفئة القليلة غير شك      على الفئة الكثيرة يُنصروننا<sup>(٢)</sup>

\*\*\*

ومن أخبار الخوارج أن من شعرائهم عمران بن حطان الذهلي.. من دعواتهم ومقدميهم في المذهب، وكان الحجاج قد طلبه، فلحق بالشام ونزل بروج بن زنباع الجذامي، وانتسب له أزدياً، فلما بدت حقيقته انصرف وترك لابن زنباع رقعة قال فيها:

يا رَوْحُ كم من أخي مثوى نزلت به      قد ظنَّ ظنَّكَ من لحم وغسان  
حتى إذا خفته فارقته منزله      من بعد ما قيل: عمران بن حطان  
قد كنتُ ضيفاً حولاً لا ترؤعني      فيه الطوارق من أنسٍ ومن جان  
حتى أردت بي العظمى فأوحشني      ما أوحش الناس من خوف ابن مروان

ثم أتى زفر بن الحارث الكلابي بقرقيسياً، وانتسب له أوزاعياً، ولكن زفر عرفه

(١) الكامل ١٣٢/٢.

(٢) المصدر السابق ١٦٢/٢ وفيه أن القائد عبيد الله بن أسلم بن زرعة، والذي ورد في الطبري ما قدمناه وكنا قد اشرنا إليه.

وقال له: أزدى مرةً وأوزاعي أخرى؟ فتركه وهو يقول:

إن التي أصبحت يعيها بها زُفر  
ما زال يسألني حولاً لأخبره  
حتى إذا انجذمت مني حبائله  
فاكفف كما كفَّ رَوْحُ إنني رجل  
أعيت عياء على روح بن زنباع  
والناس ما بين مخدوعٍ وخداع  
كفَّ السؤال ولم يولع بإهلاع  
إما صميم وإما فِقعة القاع

وهكذا عاش مطارداً في سبيل مذهبه مدة ما، ينكر حقيقته خوف السلطان.

وقد كتب إلى الحجاج لما طلبه، وكان الحجاج قد عجز عن غزاة الحرورية فقال:

أسدٌ عليّ وفي الحروب نعامة  
هلا برزت إلى غزاة في الوغى  
صدعت غزاة قلبه بفوارس  
ربداء تجفل من صفير الصافر  
بل كان قلبك في جناحي طائر  
تركت مدابره كأمس الدابر<sup>(١)</sup>

\*\*\*

ومن رؤساء الخوارج قطري بن الفجاءة وكان قد أمضى في رياسته عشرين سنة حتى قتل بطبرستان سنة ٧٩هـ، وقال في يوم دولاب بين الخوارج وأهل البصرة:

لعمرك إنني في الحياة لزاهد  
ولو شهدتني يوم دولاب أبصرت  
غداة طفت علماء بكر بن وائل  
وظلت شيوخ الأزدي حومة الوغى  
فلم أر يوماً كان أكثر مقعصا  
وفي العيش مسالم ألق أم حكيم  
طعان فتى في الحرب غير ذميم  
وعجنا صدور الخيل نحو تميم  
تعوم وظلنا في الجلال نعوم  
يُمجّ دماً من فائظٍ وكليم<sup>(٢)</sup>

\*\*\*

ولما قتل مصعب بن الزبير سنة ٧٠ للهجرة رثاه عبيد الله بن قيس الرقيات، وأشار

(١) الكامل للمبرد ٢/١٢١، ١٢٣، ١٢٤، والأغاني ٧/٣، ١٢/١١٤، ١٦/١٥٢ (ط بولاق).

(٢) معجم البلدان «دولاب».

إلى قعود مضر عن نصرته، وأدركت ربيعة ثأرها في قتله، فقال:

إِنَّ الرزِيَّةَ يَوْمَ مَسْكِنِ والمصِيبَةَ والفَجِيعةَ  
بِإِبْنِ الحَوَارِيِّ الَّذِي لَمْ يَعُدْهُ أَهْلُ السُّوقِ  
عُدَّتْ بِسَهِّ مُضَرَ العِراقِ وَأَمَكُنْتَ مِنْهُ رَبِيعَةَ  
فَأَصَبَتْ وَتُورِكِ يَا «رَبِيع» وَكُنْتَ سَامِعَةً مطِيعَةً (١)

ولما هرب الشاعر عقب مقتل مصعب أوتته في الكوفة امرأة تدعى «كثيرة» وأكرمته نحواً من سنة، وقد ذكرها في شعره مادحاً كرمها وفضلها، وجعل منها مادة ديباجته السمحة، وقد اضطر إلى تركها لأنه خشي أن يعرف أمره وتوجه إلى المدينة فاستجار بعبد الله بن جعفر الهاشمي فآجاره، ثم توسل إلى أم البنين واستعان بها فأعانتته، ومن هنا نقف على تحوله إلى الأمويين فمدح عبد الملك قائلاً:

عَادَ لَهُ مِنْ كَثِيرَةِ الطَّرْبِ فَعَيْنُهُ بِالدَّمِوعِ تَنَسَكِبُ  
مَا نَقَمُوا مِنْ بَنِي أُمَيَّةَ إِلَّا أَنَّهُمْ يَحْلُمُونَ إِنْ غَضِبُوا  
وَأَنَّهُمْ سَادَةُ المَلِكِ فَمَا تَصْلِحُ إِلَّا عَلَيْهِمُ العُورُ  
إِنَّ الأَغْرَ الَّذِي أَبْوهُ أَبُو العَاصِي عَلَيْهِ الوَقَارُ والحِجْبُ  
... ..  
يَعْتَدِلُ التَّاجَ فَوْقَ مَفْرَقِهِ عَلَى جَبِينِ كَأَنَّهُ الذَّهَبُ (٢)

\*\*\*

وقد أعجب عبد الملك بن مروان بشعر أيمن بن خريم لصدق لهجته في شعره الذي أفصح به عن رأيه، وكان يتشيع، وقد قال في الهاشميين:

---

(١) الديوان ص ١٨٤.

(٢) الديوان ص ١ - ٦.

نهارُكُمْ مكابدةً وصوم  
 ولياكم صلاةً وافتراءً  
 وليتم بالقران وبالتزكي  
 فأسرع فيكم ذاك البلاء  
 بكى نجد غداة غدٍ عليكم  
 ومكة والمدينة والجواء  
 وحق لكل أرضٍ فارقوها  
 عليكم لا أبا لكم، البكاء  
 أنجعلكم وأقواماً سواءً  
 وبينكم وبينهم الهواء؟  
 وهم منكم لأرجلكم وأنتم  
 لأرؤسهم وأعينهم سماء

وقد مدح الأمويين واتصل بعبد الملك، ودخل مصر مع نصيب على عبد العزيز بن مروان ومدحه، ثم تركه غاضباً إلى بشر بن مروان بالكوفة ومدحه معرضاً بعبد العزيز:

ركببت من المقطم في جمادى  
 إلى بشر بن مروان البريدا  
 ... ..  
 ... ..

وكان عبد الملك قد قال له: خذ هذا المال وانطلق فقاتل ابن الزبير، فإن أباك كانت له صحبة فأبى وقال:

ولست بقاتلٍ رجلاً يصلي  
 على سلطانٍ أخر من قريش  
 له سلطانٌه وعليّ وزري  
 معاذ الله من سقفه وطيش  
 أقتل مسلماً وأعيش حياً  
 فليس بنافعي ما دمت عيشي

وكان أيمن هذا يفضّل الهاشميين على سواهم ويميل قلبه إليهم، وكان ينتفع من صلته بالأمويين<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

وكان أبو العباس الأعمى أمويّ الهوى، ومن شعراء بني أمية المقدمين، وهو القائل في أبي الطفيل عامر بن واثلة من أصحاب علي بن أبي طالب - رضي الله عنه -:

لعمرك إنني وأبا طفيل  
 لمختلفان والله الشهيد  
 أرى عثمان مهدياً ويأبى  
 متابعي وأبى ما يريد

(١) الأغانى ٢١/١٠ (ط بولاق)، والشعر والشعراء (ط أوروبا) ص ٢١٤.

وقال في مروان مادحاً:

ليت شعري أفاح رائحة المسك وما إخال بالخيف أنسي  
حين غابت بنو أمية عنه      والبهاليل من بني عبد شمس  
خطباءً على المنابر فرسان عليها وقالة غير خرس  
لا يُعابون صامتين وإن قالوا أصابوا ولم يقولوا بلبس  
بلحوم إذا الحلووم تقضت      ووجوه مثل الدنانير مُس

وقد سمع المنصور منه هذا المديح أيام مروان، فلما آلت الخلافة إلى المنصور خرج حاجاً، فلقي هذا الشاعر، فقال له: أتعرفني؟ قال: لا، قال: أنا المنصور، وأنا رفيقك وأنت تريد الشام أيام مروان، فقال: أوه:

أمت نساء بني أمية منهم      وبناتهم بمضيعة أيتام  
نامت جدودهم وأسقط نجمهم      والنجم يسقط والجدود نيام  
خلت المنابر والأسرة منهم      فعليهم حتى الممات سلام

ولم يقبل من المنصور عطاءً، لأن مروان أغناه أن يسأل أحداً بعده.

وقال يحض بني أمية على عبد الله بن الزبير:

أبني أمية لا أرى لكم      شَبهاً إذا ما التفت الشيع  
سعةً وأحلاماً إذا نزع      أهل الملووم فصرها النرع  
الله أعطاكم وإن رعمت      من ذاك ألف معاشر رفعوا  
أبني أمية غير أنكم      والناس فيما أطمعوا طمعوا  
أطمعتم فيكم عموكم      فسما بهم في ذاكم الطمع

ولما غلب ابن الزبير على مكة نفاه إلى الطائف، فهجا الزبيريين، ورماهم بالبخل واللؤم والتخلف عن قریش في المفاخر. غير أنه مع ذلك كان يميز بين هواه إلى بني أمية، وبين ما كان له من صداقة خاصة، فقد كان صديقاً لمصعب بن الزبير، قال له عبد الملك

يوماً: أنشدني مديحك مصعباً فاستعفاه، فقال: يا أمير المؤمنين، إنما رثيته بذلك، وقد علمت أن هواي أمويّ، قال: صدقت، ولكن أنشدني ما قلت، فأنشده:

رحم الله مصعباً فلقد ما ت كريماً ورام أمراً جسيماً  
فقال عبد الملك: أجل، لقد مات كريماً<sup>(١)</sup>.

\*\*\*

وكان أعشى ربيعة عبد الله بن خارجة الشيباني شديد التعصب لبني أمية، مرواني المذهب، وكان يسكن الكوفة، قال يمدح عبد الملك بن مروان:

وما أنا في أمري ولا في خصومتي بمهتضم حقي، ولا قارع سنّي  
وفضّلني في الشعر واللّب أنني أقول على علم وأعرف ما أعني  
فأصبحت إذ فضلت مروان وابنه على الناس قد فضّلت خير أب وابن

فأحسن له جائزته، وقد دخل على عبد الملك وهو يتردد في الخروج لقتال ابن الزبير، فدفعه بكلام منثور، ثم أنشد:

آل الزبير من الخلافة كالتّي عجل النتاج بحملها فأحالتها  
أو كالضعاف من الحمولة حُمّلت ما لا تطيق فضيَّعت أحمالها  
قوموا إليهم لا تناموا عنهم كم للغواة أطلتُم إمهالها  
إن الخلافة فيكم لا فيهم ما زلتُم أركانها وئمالها  
أمسوا على الخيرات قُفلاً مغلقاً وانهض بيمينك فافتتح أقفالها

فضحك عبد الملك وقال: صدقت يا أبا عبد الله، إن أبا خبيب لقفل دون كل خير<sup>(٢)</sup>.

ومن الشعراء الذين انحازوا إلى الأمويين النابغة الشيباني، مدحهم ونال جوائزهم، قال يخاطب عبد الملك:

(١) الأغانى ١٥ / ٥٩ - ٦٣ (ط بولاق).

(٢) الأغانى (دار الكتب) ١١ / ٢٧١.

أرحت عنا آل الزبير ولو  
 آل أبي العاصي آل مائثرة  
 خير قريش وهم أفاضلها  
 كانوا هم المالكين ما صلحوا  
 عزّ عتاق بالخير قد نفحوا  
 في الجدّ جدّ وإن هم مزحوا<sup>(١)</sup>

وقال ليزيد بن عبد الملك بعد أن هزم يزيد بن المهلب:

فضضت كتائب الأزدي فضاً  
 سمكت الملك مقتبلاً جديداً  
 نرجي أن تكون لنا إماماً  
 هشام والوليد وكل نفس  
 يكبشك حين لفهما اللقاء  
 كما سُمكت على الأرض السماء  
 وفي ملك الوليد لنا رجاء  
 تريد لك الفناء لك الفداء

فأقصاه هشام لما ولي الخلافة<sup>(٢)</sup>.

\*\*\*

وكان لبني أمية سياسة خاصة في استرضاء أعدائهم وتألفهم، ومن ذلك أن معاوية قد تألف عمرو بن العاص إليه كما استلحق زياد بن أبيه، وعفا عن عبد الله بن هاشم ابن عتبة، من أصحاب عليّ يوم صفين، ولم يستمع في هذا إلى ما قاله عمرو بن العاص الذي استشهد بقول الشاعر:

وقد يثبت المرعى على دمن الثرى  
 وتبقى حزازات النفوس كما هيا

ثم تناقض معاوية مع عبد الله هذا بشعر كان شناعة وبغضاً، ولكن معاوية قال:

أرى العفو عن عليا قريش وسيلة  
 ولست أرى قتل العداة ابن هاشم  
 بل العفو عنه بعدما بان جرمه  
 إلى الله في يوم عصيب قماطر  
 بإدراك ثاري في لؤي بن عامر  
 وزلت به إحدى الجدود العواثر<sup>(٣)</sup>

ومن شواهد العصبية أنه لما قتل الضحاک بن قيس الفهري من قيس عيلان في «مرج

(١) الديوان ص (و، ز).

(٢) الديوان ص (ح).

(٣) مروج الذهب ٢/٣١٢.

راهط» وقتل معه أشراف قيس، أقبل زفر بن الحارث هارباً من كلب - وكانوا مع مروان ابن الحكم على القيسية التي كانت مع ابن الزبير - حتى دخل قرقيسياً وتبعه عمير بن الحباب السلمي، وأقبل زفر يبكي قتلى المرج ويقول:

لمروان صدعاً بيننا متناثياً	لعمري لقد أبقت وقبعة راهط
أرى الحرب لا تزداد إلا تمادياً	أريني سلاحي، لا أبالك، إنني
ومقتل همّ أمّني الأمانياً	أبعد ابن عمرو وابن معنٍ تتابعاً
وتترك قتلى راهط هي ما هيسا	وتذهب كلب لم تنلها رماحنا
فراري وتركني صاحبي وراثياً	فلم تُسرّمني نبوة قبل هذه
بصالح أيامي، وحسن بلائياً	أيذهب يوم واحد إن أسأته
وتثار من نسوان كلب نساثياً	فلا صلح حتى تنحط الخيل بالقنا
وتبقى حزازات النفوس كما هيا	فقد ينبت المرعى على دمن الثرى

فقال ابن المخلاة يجيبه:

على زُفرٍ من السداء باقياً	لعمري لقد أبقت وقبعة راهط
وذبيان مغروراً وتبكي البواكياً <sup>(١)</sup>	تُبكي على قتلى سليمٍ وعمامرٍ

هذه طائفة من «وقفاتي» التي أفدتها من قراءاتي في كتب الأدب والتاريخ، وهي شيء ستتبعه مادة أخرى.

---

(١) الأغانى (ط بولاق) ١٧/١١٧، تاريخ الرسل والملوك ج ٢ ق ١ ص ٤٨٢.